الدين عند الشعوب المغرقة في البداوة[1]

بقلم الاب مبارك ثابت اللبناني

يعالج الكفرة في هذا العصر نشر دعوة الكفر في انحاء العمور وقتل جرثومة الاعتقاد بالله في النفوس. وهم يسعون الى غرضهم الكفري بانشاء مدارس عالمية لا دينية يقتصرون تعليمها على اللغات والعلوم والفنون في مؤلفات لا ذكر فيها لله تعالى ولا للدين وعبادة وصلاة . ولا يرون فيها الناشئة شارة دينية ولا يفرغون في آذانهم كلمة مما يرشدهم الى معرفة مبدإ الانسان وغايته ومصيره بعد الموت كأن الانسان اخو البهيمة يجوز له او يجب عليه ان يعيش عيشها مقصور الهم على اشياء هذه الدنيا لا يعلم ان له خالقاً اوجده من العدم واعطاه الحياة والعقل لغاية اسمى من غاية البهيمة التي يشاركها في بعض احوال الحياة ، وان هذا الخالق قد كلفه ما لم يكلفها من معرفته ومحبته وعبادته على الارض مدة العمر ، وانه مثيبه على حسن طاعته ومعاقبه في عصاوته ومهيئ له ما يستحقه باعماله الصالحة او الطالحة من سعادة خالدة او شقاء ابدي .

ويزيدون على عداوة مدارسهم للدين ترويج سوق الاباحية اي اعتقاد الانسان بما يتشاق اهواءه واسلام زمام سيرته الى ايدي الحرية المطلقة من كل قيد ادبي . فينصبون للشباب اشراك اللذات ويأخذونه بمصائد الشهوات ، مفسدين عليه الدين والاداب والاخلاق بتكثير وسائل الاغواء من تمثيل قبيح ورقص خلاعي وقراءة روايات غرامية او مشحونة طعناً في الديانة والعبادة والتقوى والفضيلة وحطاً من اقدار رجال الدين ، الى جرائد ونشرات تنسج على هذا المنوال وترمي الى ذلك الغرض ؛ ومن ابلاغ الزينة عند الاناث الى غاية الفحش ومقاربة العُهر والعُري الفاضح الذي يشمأز النظر النقي وتتقيأه النفس الشريفة مما هو عند العقلاء من قبيل ازدراء الانسان بانسانيته وخفضه

---

[1] قد لخّص الاب ثابت هذا المقال البليغ عن الفرنسية منذ بضع سنين . وقد عثر عليه حضرة الاب انطونيوس شبلي اللبناني بين اوراقه في دير مار انطونيوس في بيروت وخص به مجلتنا .

من قدر نفسه ، الى غير ذلك من وسائل الترغيب في المنكرات والتشويق الى المحرّمات والتحضيض على التهتك والانغماس في اخسّ الملاذّ وابرعها في تسميم الاخلاق وقتل العواطف الشريفة، ناهيك عمّا يُعرض على الشاشة في دور السينما. من صور مُغرية تنفخ في كور الشهوات حتى يتحول قلب المشاهد الى مثل الحديد المحمى يحرق البصيرة والارادة وما ينظر الى الروح والى المادّة كذلك .

على أنّ هذه الريح الكفرية قد اخذت منذ عهدٍ تهبّ على بلادنا العزيزة مع الحضارة الكاذبة وتهدّد بالذبول واليبوسة زهرة الايمان والفضيلة المجتلة ببهائها وطننا الكريم والمطيّبة ارجاءه بعرفها الزكيّ .

فوجب علينا ان نهبّ كتلةً واحدة لدفع أذاها وتلافي خطرها صوناً للنشء الوطني من التدهور الى دركات الانحطاط الادبي ، وضناً بعقائدنا السليمة أن ينال منها الاعتلال ، وبسمتنا الجميلة ان تعبث بها ايدي التشويه.

ولمّا كان الدين ملاك الاهواء ولجامَ الشهوات ومؤدّب العواطف ومربّي الاخلاق والوازع الباطني عن المنكرات لم يكن شيء اولى منه ولا مغنياً عنه بشدّ ازرنا لردّ الهجمات العنيفة الزاحفة علينا من كل صوب .

لذلك نحبّ ان نبسط هنا بعض مباحث تنظر اليه نرنّها الى القارئ باساليب تحمل اللذة مع المنفعة اقصاء للملل الذي يغلب ان تستدعيه الابحاث الرزينة اذا خلت من الفكاهات والاحداث التاريخية المستظرفة ، اما لغرابتها واما لبروزها للافهام من طيّات القرون .

لا احدثكم عن دين تعرفونه من الاديان التي للشعوب المتحضرة بل عن ادين الشعوب المتوحشة المنزوية في البداوة التي لم تطلع شمسُ الحضارة عليها . فتروْن انّ الدين قرين النفس الانسانية منذ خُلق الانسان وحاجة من حاجاته الملازمة تتطلبها طبيعته وتترتب عليها سعادته .

وبما ان هذا المبحث طويل وكثير الشُعَب حتى لا يستوفى بمقال واحد ، اجتزئ هنا على قسم منه وتسهيلاً للفهم وحملاً على الاصغاء. ابسطه على ثلاث درجات : الاولى في تعريف الانسان المتوحش واصل اعتقاداته الدينية ، والثانية في الحيوية ، والثالثة في السحر .

الاولى : تعريف الانسان المتوحش واصل معتقداته الدينية : قال العلامة لانج في تأليف له عنوانه : قصص الاديان والعبادات الوثنية ان المتوحش او البدوي باعتبار التمدن المادي هو من لا يستعمل الا ادوات من حجر او خشب والا ما خشن من خزف وقماش ، فهو يجهل المعادن وتوليد النار الا على المعروف من اقدم طرائق توليدها من مثل حك عود بعود . ويغلب على اخلاقه قعود الهمة والكسل ويتناول غذاءه من صيده ومن النبات البري وقليلاً من الزراعة ومن لحوم الحيوانات الداجنة .

وهو باعتبار احواله الروحية من يقيس كل العالم على نفسه ، فيرى الاشياء الطبيعية كوائن متنفسة وعاقلة فيقوم باعتقاده ان جميع الناس اهل لان يتغيروا الى نبات او بهائم او نجوم ، وان الريح والغيم والشمس والقمر اشخاص لهم ما للآدميين من شهوات ورغائب وخلال . وان الحيوانات قد تكون خلائق اقوى منه وعلى نحو ما الهية وخالقة .

وهو باعتبار الدين من يعتقد بارواح اجداده وارواح الغابات والينابيع مما لم يسكن قط في جسم بشري . على انه يشعر احياناً بان عنده ايماناً ادبياً اسمى وارقى في بعض الاحوال . السحر مقارن لصلاته ، والسجود لموجودات غير متنفسة من دأبه ، يعد الحيوانات حماة له فائقة الطبيعة فيتبتل اليها .

وهو باعتبار الاجتماع من يبني شرائعه على قواعد قوامها تعيين القرابة بين الانسان وبين الاشياء الطبيعية قرابة يعدها مقدسة فيعلل بها موانع الزواج وضروب الثأر الاجبارية ، وتعتبر في السحر رتبة سامية في عرفه .

الانسان المتوحش اشبه اخلاقاً بالولد الصغير ، يتوق الى معرفة كل جواب ويكتفي بادنى جواب ، وعقله لا يتناول الا الصور الكثيفة ، فيتصور الالهة والارواح كوائن مادية ، وعنده ان الروح هو كل شيء وكل علة في كائن حي . فسبب الارواح روح ، ومُنزل المطر روح وهلم جرًا . وعبادته ليست محض محبة لمعبوده بل وسيلة لاحراز محبة كائن اسمى لكنه غير مستغن عن الانسان حتى في الحاجات الطبيعية والغليظة ، لذلك كان انه يُستمال بتمكينه من حاجاته .

المتوحش إما صيادٌ او حرّاث راحل . لذلك يتجه انتباهه الى ما يراه من حيوان وشجر فيدهشه بعضها بغرابة مشهدها والبعض بقوتها الطبيعية والبعض

بنضارة الورق والتفاف الاغصان فتميل نفسه الى عبادتها . واوّل ما حرّم عليه فكره الشمس باشراقها واشعاعها وحرارتها وطلوعها ومسيرها ومغيبها. والقمر بتقلباته وفوائده ، والولادة والموت والانبات وادوار الحياة على اختلافها والامراض والاحلام والغضب والسكر والاشيا. النافعة الضرورية لحياته ومشاهد الطبيعة المدهشة او الفجائية ، فهو ينعم النظر في جميع هذه الاشيا. ويبحث عللها وغاياتها وطبائعها . فيحلّ مسائلها حلًا صبيانيًا لما به من قصر العقل وقلة الفهم. مثله في ذلك مثل ولد صغير لا يُحسن البرهنة ولا تميز الحقيقة من الخيال . فقد رأينا صغارًا ينظرون الى قمة جبل التف عليها الضباب فيخيّل اليهم ان الجبل متصل بالسما ، واذا رأوا الغيم عند المسا. متلبدًا في الافق من جهة البحر وقد تكونت منه صور حيوانات من جمال او خيل او بقر الى غير ذلك يحسبون تلك الصور حقائق اي حيوانات على ظاهر ما يشاهدون . المتوحش ولدٌ صغيرٌ بعقله وحسه وخياله ، فلا غروَ ان يعتقد وجود الحياة في كوان ما لها من حياة.

وله عقلٌ يستعمله ومن طبعه الفضول فهو يستوضح الاشيا. ويسأل نفسه من اين اتى والى اين يمضي ، ويبتغي ان يعرف الكثير من العلل لكنه لا ينتهي الى تعليل صحيح . فعنده ان مصدر الشمس انسانٌ يحمل نارًا ، أو يخيّل اليه ان الشمس انسانٌ رآه صباح يوم يشقّ الهوا. بجناحين مبسوطين ، والهلال في عرفه قرنان بارزان في راس حيوان غير مرئيّ . ويتوهم الارضَ بارزةً من الما. كما يبرز الصدف من البحر او خارجة من مغارة عميقة كالتي اوى سرةً اليها ويعلل الموت بخروج الروح الذي كان يُحيي الجسد .

وبعقله الطفليّ يقيس الاشيا. بقياس نفسه فيحكم بان لها مثل ما له من حياة وتاريخ : فالشمس والقمر يولدان ويتزوجان ويعيشان ويموتان . ولها ارادة وحرية واميال وشهوات ، فتارةً يكونان صالحين وتارةً شريرين. وكذلك الحجارة والسهام الخشبية والمعادن والبهائم والشجر . ولكل منها روحٌ يُحييه . فالسهم يجرح لان فيه روحاً مؤذياً والشمس تُحرق لانها غضبا. ومتسخطة .

ولاعتقاده ان كل علّة هي ذات حياة وحرية باستطاعتها ان تنفع وتضرّ اصبحت الاشيا. في اعتباره آلهةً يبذل الجهد في اخضاعها او اتخاذ سخطها ، فاخضاعها بالسحر واتخاذ سخطها بالدين والعبادة . فالسحر والدين ضروريان

لحياته ، بدونها لا امن ولا سكينة. ذلك لانه لا يملك ان يعيش دون الطبيعة وهو يتوهم ان الاشياء حية مثله . فالصيد والزراعة والحرب والولادة والزواج والمرض والموت كل ذلك معلول لكوائن ذات حياة ، فهمه ان يحمي نفسه من الارواح الشريرة ويستميل الصالحة ويخالف القديرة ، وهذا سبب من اسباب اختلاق الاقاصيص الدينية عند المتوحشين . ومن اسباب ذلك الرغبة في معرفة الانسان نفسه ومصيره وسائر احواله فيثبتُ المتوحش باعمال دينية واعتقادات مستهجنة وطقوس مستغربة وتكثر عنده الحكايات عن عبادة الموتى ونسب الالهة واصل العالم وشرح الموت . ويختلط عنده العلم بالدين ، والحياة الدينية هي الانسان كله في نظره . ويترقى الدين عنده بمقياس ترقي عقله وعلمه فلا يعود مقصوراً على تحصيل المنفعة في الحياة الزمنية ولا نكير ان الدين عند المتوحشين وسواهم هو علم الخلاص وبيان اصل الانسان وغايته .

ومجتمع المتوحشين كافرادهم حكماً واخلاقاً فما تحرّمه الشريعة الفردية تحرّمه شريعة الحكومة . وللحاكم عندهم صفةٌ دينية وحكمه الهيٌّ لانَّ فيه روحاً الهيًّا .

اما اصلُ الاعتقاد بوجود الله فلا طاقة بمعرفته تاريخيًّا لان ابتداء تصور الله لم يرَه احد . لكننا نقطع بوجوده تعالى اعتمادًا على العقل والوحي ، وليست عواطفنا الدينية العصرية بمنقولة عن عواطف الناس الاولين سكان المغاور وعلة التشابه بين العاطفتين وحدة الطبيعة والغاية في الانسان .

الثانية : الحيوية : وهي الاعتقاد بوجود نفس لكل كائن من الهوامي وذوات الاعضاء .

قال الاب لاجين : «يعتقد المتوحشون ان الحياة تتناول البهائم والاشياء كالناس ، وعلى هذا الوهم تُبنى معتقداتهم الدينية» .

فزنوج افريقية الوسطى يعتقدون ان السماء اله المطر ويسمونها لوباري . وانَّ القمر حيٌّ ومتزوج بالبقرة والهلال قرناها . ومنهم من يعتقد ان المياه حية ويؤلهونها فيذبحون لروح الانهار منماً للجفاف . وقبل ان يجتازوا نهرًا يستأذنونه للسلامة من الغرق . وقوس القزح حيٌّ يشرب من ماء البحر ، انه حية تخرج من مستنقع لتصعد الى السماء . والقمر والشمس زوجان ، والقمر هو

زعيم الارواح باعتقاد قبيلة هوتنتو ، وكل النجوم والكواكب حية باعتبار قبائل الكونكين ، والنار والماء حيّان ومعبودان . سُئل ساحر من تلك البلاد ماذا يتمتم اذ يعالج شفاء عليل ، فقال: اخاطب الشجر والاطيار والينابيع والماء والصخر والهواء والمطر وورق الشجر طالباً عونها على ما اريد .

وعند قبائل الكرابيب أوعية من اليقطين المعروف بالقرع يجمعون فيها حجارة واشياء اخرى فيها ارواح ويسمونها القوارير السحرية .

وفي ارسياني يؤلهون الشمس ويسمونها (كا) والقمر والنجوم حتى البراكين. وفي الصين اعياد حافلة للاله النهر ومثلها للاله الماء .

وللحيوان في نفوس المتوحشين مكانة عالية . فهي في نظرهم ذات عقل كالانسان واحياناً اعظم منه مكانة واكبر عقلاً : ذكر ان الجوالة مونتيرو البورتوغالي انتهى الى الجنوب الشرقي من افريقية راكباً حماراً وكان اهل تلك البلاد لم يروا حماراً من قبل فتعجبوا مندهشين ، وكان انهم بعد زمن اختلفت اراؤهم في امر فاتوا الحمارَ يستوضحون رأيه فيه بكل احترام .

ومن البهائم ذوات الرئاسة على الانسان في اواسط افريقية القرد والفيل والضبع والاسد والتمساح والنسر والعقاب والافعى. (زيد لهم عليها حمار البورتوغالي)

والحيّاتُ في داهومي تعيش بتال الحكومة ، واهل تلك البلاد يعبدونها ولها عندهم هياكل وذبائح واعياد . وثمّ حظيرةٌ جميلة الوضع يربّون فيها مئة حية تخرج الى احياء المدينة وقت تشاء ، وكل من رآها يسجد لديها مغفراً وجهه في التراب حتى تجوزه ، واشدُّهم عبادة يحملها ويردّها الى بيتها المقدس باكرام لا مزيد عليه . وفي وَيداعَ ضربٌ من الحيات الشرسة تُعرف باسم (يُوا) تبتلع ما تصادف في ممرّها من حيوان ، وكلّما كانت اكثر شرًّا كانت عبادة الساجدين لها اشدّ واحرّ . واذا افترست ولداً لهم نالهم شرفٌ وسيم وغنمٌ من البركات . وأبوا الولد المفترس يجثوان ويقبّلان الارض شاكرين الاله (يُوا) على اصطفائه ثمرة بحتها ليكون له طعاماً ما يتلذذ به .

ولكل من افراد الجنس الاحمر في اميركا الشمالية حيوانٌ يخلص له العبادة ويتخذه حامياً قال الاب مشاركوا في صيد الدبّ : اذا قتل صائد دباً يُدخل انبوب غليونه بين اسنان الدبّ وينفخ حتى يمتلئ فم الدب دخاناً ويستحلف

روحه ان لا يحمل حقداً عليه ولا يتصدى له في مباشرته صيداً آخر في المستقبل وبما ان الدبّ لا يجير جواباً يقطع الصائد عصبة لسان الدب ويحملها الى قريته فيجتمع اهلها ويلقون العصبة في النار باحتفال عظيم وصلاة طويلة فاذا احتدمت وتحركت لتنسحب فتلك دلالة قاطعة على ظهور روح الدب والمغفرة .

الخلاصة : ان المتوحشين في كل قطر يذهبون الى ان الحيوانات ارفع رتبة واعظم قوة من الانسان ، واحياناً يؤلهونها فيحدثونها ويستشيرونها ويبتهلون اليها ويسألونها الحماية والايد والنجاة .

الانسان نفسه يدخل في رتبة الحيوية كسائر الموجودات ، فان المتوحش يقوم في وهمه انه مسكن لروح او لارواح كثيرة ، فالموت في اعتقاده يكون بخروج الروح الساكن فيه من الجسد ، لذلك كان إن اهل داهومي يلقون على القبور انواعاً من الطعام والشراب والملبس والادوات اعتقاد ان روح ميتهم يستعملها في حاجاته كما لو كان حياً . ويقربون على القبور ذبائح بشرية اغذية لروح الفقيد ، أو يتخذها رفاقاً له واصحاباً ، واولو الجنس الاحمر في اميركا يدفنون مع الميت كل ما كان مختصاً به من آنية وكساء . وما اشبه لئلا يصل الى العالم الآخر فارغ الحقيبة من الضروري ، واحياناً يذبحون للراحلين نساء وعبيداً حفاظاً على ارواحهم من حاجة الى نساء وعبيد .

والطفل الميت في شمالي المكسيك يُلاّ فمه بشيء من ثدي امه مخافة ان يجوع مسافة الطريق . ومن المتوحشين من اذا مات احد اقربائهم لا يجرأون على الخروج من مساكنهم مدة ثمانين يوماً مخافة ان يلتقوا بروحه فيخشاهم اليه ، ويلبسون الحداد ويشوهون وجوههم ويتخضبون ويغيرون احاديثهم لئلا تعرفهم روح الميت ، ويكثرون الضجّ في المأتم خوفاً لروح الميت على الطرب . ولا يعودون يلفظون اسمه لئلا يُستدعى بطريقة سحرية ، وبما انّ الروح اقوى من الانسان كان من اهل بولونزي من ينتحر ليصير اقدر على الانتقام من عدوه .

روى بعض المرسلين انّ اهل كارولين اذ يموت المحتضر يطلون جسده بالاصفر ويرسلون اصواتهم بالعويل والتنهد والانين وبعضهم يقصون لحاهم وشعر رؤوسهم ويلقونها على الميت ويصومون ذلك اليوم الى الليل وحينئذٍ يأكلون بنهم وشراهة كبهائم متها اشدّ الجوع . ذلك دليل للفقيد على شدّة حزنهم لئلا يأخذه

الغضب فيعود اليوم ويسلبهم راحتهم والسلام .

وروى مرسل آخر ما عاينه في الارجنتين من دفن الموتى قال : يلقون الى جانب الميت مؤونة وقوساً وسهاماً ورديساً ليتمكن من حفظ كيانه ولا يعود الى العالم فيُزعم الاحياء ، لاعتقادهم ان النفس لا تفنى مع الجسد اذ كان من طبعها البقاء .

ومثل هذه العادات والضجّ والولولة والرقص والملابس المشهجنة تجدها في المآتم في تيبت والصين فاذا مات في الصين انسان من اهل الثروة يظلّ الكهنة البوذيون يضجون ضجيجاً هائلاً يصمّ الاذان مدة ثلاثة ايام ثم يحملون الجثة الى قبر فيه من الزينة احلاها واغلاها . ما قولكم في العادات المألوفة في بعض مآتمنا اليست نسخةً من تلك المآتم المستغربة ؟

فالمحصّل من هذه العادات ان المتوحشين يعتقدون وجود روح في الجسم والموتُ عندهم ذهاب ذلك الروح . وايضاً فانّ الامراض تدلُّ على هذا الاعتقاد ، فاذا مرض احدهم عزوا مرضه الى روح شرّير فيه او الى رغبة روحه في الافلات من جسده . وفي جزر الانتيل يعالجون العلل البدنية بتقيؤ لاخراج الارواح الساكنة في الجسد . وفي افريقية الوسطى يُخرّج الروح الشرير بالعطس ، اما التثاؤب فاستدعاء روح صالح . (وعندنا يسدُّ المتثائب فاهُ باصابع يده ، لماذا ؟ أَلمنعِ من الدخول ام من الخروج ؟)

ومنهم مَن يعتقد ان علة المرض خروج الروح الصالح وكذلك الموتُ . فلا يألون جهدًا في منع ذلك الروح من الخروج .

وفي كاليدوني الجديدة من يسدُّ فم المريض ومنخريه لئلا يخرج الروح الصالح فيموت المريض . لكنه يخرج من مخرج آخر بالرغم عما يجهدون .

قال الاب روجيرون احد المرسلين : كنتُ امسح متازعاً بالزيت المقدس فاتى صديقٌ له وسدَّ انفه وفمه بيده حتى كاد يخنقه فرفعتُ يدهُ عنه فمات . فنبهت الرجل وقال لي : ها انَّ روحه قد أفلتَ لماذا رفعتَ يدي ؟ .

ومعالجة المرضى عند المتوحشين تكون غالباً بالتعزيم طردًا للروح الشرّير ، والساحر هو الذي يدخل الروح الشرير في الجسم فيُمرضه وهو الذي يطرده من الجسم بالسحر فيشفيه ، ويعتقدون ان في الساحر روحاً جبّارًا يستحوذ عليه

وبقوة هذا الروح يجلب المرض والشفاء . ولا يقدر على شيء من ذلك ما لم يكن مجذوباً او في حالة غضب شديد او مصاباً بداء الكلب . وفي بعض الاماكن يتوسلون لمثل هذه الحال بالسكر المفضي الى الجنون او بالصوم المفضي الى الهذيان . ومن حصلت له هذه النعمة فهو ارفع من الناس وكاهنٌ وشفاءٌ الخ (تُرى الى هذا الاصل مردّ تكريم المجاذيب في بعض البلدان ؟) .

وسلطان الكهنوت يرثه الابن عن ابيه على شرط ان يلتقف روح ابيه عند خروجه بالموت ، وفي بعض القبائل يصير الرجل ساحراً اما بالارث او بالهبة او بادعائه الالوهة . والوثني يحب المرافين ويُسميهم (تاما) فاذا مرض استقدمهم فيعتم تاما بعمامته الالهية واسمُها (شاماو) ويشدُّ وسطه بنطقة بها اجراس بقال ويجعل يقفز في الغرفة والساحة ويستدعي الروح ليأتيه بالدواء . ويكون الناس وقوفاً ينقرون على الطبول وينفخون في الابواق والزمور ، وقد يموت العليل بشدة الغوغا ....

في اميركا الشمالية وفي افريقية الوسطى يُعالج المريض بالامتصاص او بالتمسيد او بكليهما فالساحر يمتص الروح الشرير او يخرجه بالتمسيد فيخرج بشكل شيء خفيف . قال بعض المرسلين : تأخذ المرافة بالتعزيم حتى يزول الالم فان استعصى عمدت الى الامتصاص ولا تزال حتى تنتهي باستخراج خشبة خشبة دقيقة او عظم او رمل وما اشبه ذلك وتعرضه لعيون المشاهدين فيدهشون .

والدمُ ايضاً يحتوي ارواحاً تكون تارة صالحة وطوراً شريرة ، فالعرب وسكان غينية الجديدة لا يأكلون الحيوانات المخنوقة لبقاء دمها فيها خوفاً من اذى الارواح .

وقبائل الهوتنتو يعتقدون انهم يأخذون ارواح الحيوانات التي يأكلون لحومها . وقبائل الكرايب يذيبون رماد الموتى في شراب يكرعونه على الفور فتصير ارواح الموتى في أبدانهم ، والقبائل البرازيلية يأكلون الجثة نفسها وفي اوستراليا يقتلون حيواناً ويدفنونه في اساس البناية فتتوطّد وتصان بقوة روحه .

يعتقد المتوحش ان الانسان مسكنٌ لروح يقيم فيه مستقلًّا عن الجسد ومربوطاً به قبل الموت وبعده وقد يكون الجسد مسكناً لعدة ارواح . وكلّ

ما يحدث للانسان وفيه حتى العطس والتحرك والهضم والاحلام والمرض والموت فعلّته الارواح . وعندهم ان الارواح تستطيع الانتقال من جسم الى آخر ، ومن معتقداتهم وجود ارواح تائهة نفوس الاجداد والاباء وسواهم ويخافونها اشدّ الخوف لقدرتها على ايذائهم ، وفي افريقية الوسطى يحالفون ويسالمون الارواح حتى الشريرة ولكل منهم روح يقوم بحمايته . فيبني له كوخاً بجانب كوخه ويتقي ان يجرح عواطفه بشيء ، فلا يكشف عن عمره ويبالغ في كتم ما يعروه من مرض لئلا يُتهم بنقص الثقة بالروح حليفه .

ولهم اوثان مصنوعة يسمونها (فتيش) ومعناها بالبورتوغالية المصنوعة باليد ، وهي حجارة وآنية وجذوع شجر وصدف وجرار مكسرة عليها نقش الى غير ذلك من الاشياء .

ومن هذه الاوثان الحقيرة ما صُنع بشكل انسان او حيوان مسيخ تنبو النواظر عنه لدمامته ، واولو الجنس الاحمر لا يجرأون على التحدث بقصص الارواح الا في فصل الشتاء لانّ الارواح في الشتاء تأوي الى المغاور خامدة الهمة من قساوة البرد فلا تسمع ما يتحدثون . اما في الصيف فتكون على مقربة منهم او في مجالسهم ، ومنهم من يحبس الارواح الصالحة في قوارير سحرية (عند الكرايب) .

قال العلامة مونيه : الطبيعة باسرها ، يا ايها ذات ارواح ، تكلّم الانسان المتوحش تخاطبه بدويّ الريح وهدير الشلال ، والحرشُ ايضاً حيٌّ وله شهوات وطبائع فهو يغضب ويرضى ويرفع الشوك من طريق الصيّاد او يركه فيه ، ويجرّ الصياد الى مستنقعات فاسدة وورطات عميقة تواتيه فيها عفاريت شريرة تمتص دمه من جراح تحدثها الاشواك ، والهنديّ يعرف هذا كله ويعرف العفاريت باسمائها .

ان المتوحشين يعتقدون بوجود روح يُحيي الجسد ولا يموت لكنهم لا يتصورون النفس مجردة عن الهيولي كما في اعتقادنا ، بل هي في اعتقادهم انسان او حيوان صغير لا يتناوله النظر لانه غير مرئي .

واهل مالازيا في اوسانيا يتصورون النفس بشكل انسان صغير كالابهام له طبيعة غير مادية لكنه جسم يشغل مكاناً اذا دخل في شيء مادّي ، وله قوة الانتقال بسرعة من مكان الى مكان وهو يهجر الجسد الى حين في مدة

النوم وفي داء النقطة وفي حال الاغماء والمرض اما بعد الموت فيخليه بتاتاً. والنفس عند بعضهم قابلة الوزن تكون سمينة او ناحلة وطويلة او قصيرة ، واهل نيا يزعمون انّ بامكانهم ان يجعلوها على ما يهوون . واثقل نفس تزن عشرة كرامات ، وكلما كانت ذات اتساع كلما طالت الحياة .

ومن عادة بعض الهنود وقت الولادة ان يسدّوا نوافذ البيت وثقوبه ويكمون افواه الحيوانات ، والذين يحضرون الولادة والوالدة ايضاً يسدّون انوفهم لئلا يستنشقوا نفس المولود فيموت لساعته .

ومن اغرب خرافاتهم طردُ العفاريت ، فانّ انساناً يحمل تمثال تمامبا وهو روح يزعمون انهم ادخلوا فيه جميع ما في البيت من ارواح شريرة ، وحامل التمثال يجري به ركضاً الى موضع خالٍ وفي صحبته رجال مسلّحون بالسيوف والبنادق رافعين اصواتهم بالضج والصراخ وهم يهزهزون السيوف ويطلقون البارود ارهاباً للعفاريت واقصاء لهم عن البيوت .

ومنعاً للعفاريت من دخول قريتهم يلقون لهم في خارجها أرزًا ودماً واشكالاً من المأكول او يسيجون المدخل بالازهار واحياناً بالشوك ، وربما قاموا بحفلة طواف وهم يرشقون باسيافهم جسم الهواء ليزعموا إلهةَ القيء .

ومنهم من يتصور النفس بصورة طائر فيلقون على رأس المريض حبًّا لئلا يطير بالتقاطه عن الطيران . ومنهم من يتصورها بصورة فأر او فراشة او حرذون .

ومن اوهامهم ان النفس اذ ينام الجسد تعمل اعمالاً كثيرة بدونه لاستقلالها عنه فتركب الاسفار البعيدة وتزور اشخاصاً وتقاتل وتفرح وتحزن وتبكي وتضحك . والاحلام عندهم حقائق لكنها فعلُ الروح وحده . والروح في اسفاره الليلية يلاقي صعوبات وعوائق جمة وقد يضبط فيموت الجسد. ومن مرويات اهل جزر كولومبيا ان روحاً بصورة جرذون بينما كان يشرب من ابريق سقط الغطاء فجأة على الفوهة فانحبس ولم تعد الحياة الى الجسد الذي انطلق منه حتى فُتح الابريق . وهم لا يوقظون النائم بتتةً ليكون للروح مهلة للعود اليه ولا يغيّرون مرقده مخافة ان يعود الروح فلا يجده .

(من هذه الخرافات نشأت اوهام عند بعض اهل الحضارة فوقع في نفوسهم

خوف الارواح وصاروا يتوهمون انهم يرون ارواح الموتى حول منازلهم ويسمعون كلامها باذانهم) .

وعند الكونغو حفلات وطقوس لادخال النفس في جسد المريض معتقدين انّ النفس تخرج احياناً من الجسد مكرهة بقوة الارواح والسَحَرة . فيمرض الجسد او يموت ، وعلى الساحر ان يعرف بالحلم او بالسكر تلك الأرواح ويقاتلها ويعرف ايضاً الى اين ذهبت النفس أإلى شجر المقابر مثلا او الى مكان آخر فينصب لها شركاً حيث تكون ويقبضها لئلا تعذّب الاحياء .

ومن المتوحشين من يعتقد ان الروح ظلُّ الجسد . فالمتوحش في جزيرة بابار اذا شاء ان ينزل مرضاً بانسان يهوي بالضرب على خياله ، وفي آسيا يتجنبون وقعَ ظل الانسان على قبر لئلا يحبس الظل فيموت صاحبه . واذا مر في ظل انسان ضبعٌ او تمساح يمرض الانسان او يموت ، واهل اوستراليا يخافون من ظلّ الحماة . (فيا للكنة من كثافة ظل الحماة !) وفي بنجاب يخافون ظلّ المرأة الجبلي وقبائل الفيجان يذهبون الى ان صورتهم التي تنعكس على وجه الماء هي نفوسهم ذاتها فما يصيب ظل الانسان على ما رأينا يمكن ان يُصيبها . ويضعون في مدخل البيت وعاء فيه ماء حتى اذا دخل عدوٌ يطعنون انعكاسه على الماء بدية . واذا مات ذو قرابة لهم في بيت فيه مرآة يحجبون المرآة بغطاء كثيف منعاً لروح الميتِ من أخذ نفس اقربائه الذين تنعكس صورهم في المرآة .

والهنود يخافون المصورين اعتقاد ان صورة الانسان هي نفسه فايُّ اعتداء يوجه الى الصورة يقع على النفس حتماً .

يتضح مما اتينا عليه في هذا الخطاب ان العاطفة الدينية بارزة ومستكنة عند جميع الشعوب حتى المتفرقة في البداوة فان قيل انها عند الشعوب المتمدنة انما نشأت بغرس ايدي الحضارة قام بغرسها اناس من اهل الحكمة والصلاح لسعادة المجتمع الانساني قلنا فمن غرسها في نفوس المتوحشين ؟

فالجواب ان العاطفة الدينية ان هي الا فطرةٌ في الانسان اوجدها الخالق القدير الحكيم لكي يكون للانسان رابط من ضميره يشده الى الله شدًّا وثيقاً بالخضوع والطاعة والعبادة . على ان العقل وحده او بمساعدة الوحي يُثبت

للعاقل وجود كائن أسمى في يده مقدراته فيجبه ويخشاه ويترجاه ومن ثم يستعطفه بالتقادم والصلاة . وللمتوحشين حظ من معرفة الالوهة . والدين مقرون بجميع اعمالهم واحوالهم لكنهم لصغر عقولهم وضلال تصوراتهم واستيلاء الاوهام على مخيلتهم وشدة انغمالهم بالاشياء الطبيعية والمحسوسة وقياسهم كل الموجودات بمقياس نفوسهم ، يتوهمون وجود اللاهوت في الاشياء الطبيعية فيؤدونها مفترضَ العبادة على حسب اخلاقهم وحاجاتهم ولا يزالون على ذلك حتى يترقى الدين عندهم بترقيهم في الحضارة والمعرفة فيحطمون اوثانهم لدى تقدّمي الاله الحق المبدي والمعيد .